الباب الأول

تكوين الحوفي الثقافي و تراثه العلمي

١. الفصل الأول : الحالة السياسية والدينية و الثقافية في عصره :-
   ١. الحالة السياسية .
   ٢. الحالة الدينية.
   ٣. الحالة الثقافية.
٢. الفصل الثاني : حياته و تكوينه الثقافي :-
   ١. حياته .
   ٢. ثقافته .
   ٣. شيوخه و تلاميذه .
٣. الفصل الثالث : تراثه العلمي و مصادره : -
   ١. مصنفاته .
   ٢. مصادره .

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

الحالة السياسية و الدينية و الثقافية في عصره

يقتضينا منهج البحث في حياة عالم من علماء التفسير للوقوف على منهجه، أن نلقي بعض الضوء على الجوانب المؤثرة في شخصيته و في نتاجه العلمي ، حيث إن الإنسان ابن بيئته و عصره، و لا تفهم الشخصية العلمية بمعزل عن مؤثرات العصر و انطباعاته. من هنا كان من الضروري الكشف عن الملامح السياسية و الدينية و الثقافية لعصره للوقوف على مكوناته الثقافية ثم على منهجه في التفسير.

أولا : الحالة السياسية :

عاش الحوفي منذ بداية الفتح الفاطمي لمصر سنة ٣٨٥هـ حتى سنة ٤٣٠هـ ، ومن ثم عاصر خمسة من الخلفاء الفاطميين هم : (المعز توفي ٣٦٥هـ) ، (العزيز ٣٦٥-٣٨٦ هـ) (الحاكم ٣٨٦-٤١١هـ) ، (الظاهر ٤١١- ٤٢٧هـ) ، (المستنصر ٤٢٧ -٤٨٧ هـ).

وقبل أن نلقي الضوء على الحالة السياسية في مصر في عصر الفاطميين ، نحاول أن نلقي الضوء على الحالة السياسية منذ دخول الإسلام مصر حتى عصر الفاطميين ، وذلك للتعرف على آثارها في بيئة الحوفي وفي الحركة العلمية المعاصرة له فتحوها وحولوها إلى دولة إسلامية سنة ٢٠هـ وذلك على يد عمرو بن العاص الذي عدت فترة ولايته على تلك البلاد فترة تطور في أحوالها الاقتصادية والسياسية والدينية كما عدت فترة انتعاش وتقدم[١] ومنذ ذلك الوقت تحولت مصر إلى ولاية عربية تابعة للخلافة الإسلامية، ثم تطورت الحياة السياسية في مصر فأصبحت تحكم من دمشق أيام الأمويين ومن بغداد في

١. د.علي إبراهيم حسن:استخدام المصادر وطرق البحث في التاريخ المصري الوسيط ص ٠١٨.

عهد الخلفاء العباسيين، وفي تلك الفترة أصبحت البلاد في حالة من الاضطراب وعدم الاستقرار وبسبب ذلك أنه وَالَيِ مصر منذ وفاة عمرو بن العاص" سنة ٤٣هـ إلى قيام الدولة الطولونية سنة ٢٥٤هـ " تسعة وتسعون واليا ولقد أدي قِصر عهد الولاة ، وجشعهم وتزعزع مراكزهم إلى عدم استفادة البلاد من ذلك العهد،كما حال دون ما كانت ترجوه البلاد من تقدم ورقي هذا بالإضافة إلى ما قام به المعتصم من إسقاط العرب من ديوان إحلال الأتراك محلهم وبذلك عد أول خليفة أدخل الأتراك الديوان واستكثر منهم حتى كان له من مماليك الترك عشرون ألفا [١]، أسند إليهم المناصب العالية وقلدهم الولايات الكبيرة وقد ظلت مصر تحت حكم ولاة من الأتراك حتى سنة ٢٥٤هـ ، حيث ولي أمور مصر من قبل هؤلاء الولاة الأتراك أحمد بن طولون الذي أسس في مصر دولة جديدة عرفت باسم الدولة الطولونية، ولقد كان من أهم أعماله أن انتعشت البلاد في عهده واستردت قوتها وعظمتها وأصبحت مصر إمبراطورية شاسعة تمتد من العراق إلى برقة بما في ذلك الشام وفلسطين[٢] .

وعلي ذلك "لبثت مصر منذ الفتح الإسلامي زهاء قرنين ونصف قرن ولاية خلافية تتوارثها الخلافة أينما حلت، الخلافة العامة فالخلافة الأموية ،فالخلافة العباسية .غير أن مصر كانت منذ الفتح تتبوأ بين الولايات الخلافية مركزا ممتازا ، فقد اُتخِذَت قاعدة لفتح أفريقية فالأندلس وكان ولاتها الأوائل ولاة لأفريقية وكانت أيضاً بموقعها الجغرافي وأهميتها العمرانية مطمح الزعماء المتغلبين يرون فيها ملاذا منيعا للحركات الاستقلالية [٣] .

١- ابن كثير : البداية والنهاية ٢٦٦/١٠
٢- د: علي إبراهيم حسن : السابق ص ٢٠
٣- محمد عبد الله عنان :الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية ص١٧.

ظلت مصر بين هذه المتغيرات السياسية طوال هذه الفترة ، وإن يكن الشعب المصري يعطف دائما على أولئك الحكام الأجانب خصوصا وان معظمهم من الفرس أو الترك المستعربين فكان الزعماء المحليون ينزعون دائما إلى منافستهم ومناراتهم، وكان الجند كثير التمرد والثورة يتبرم من أطماع أولئك الزعماء وجشعهم في استخلاص أرزاقه[١]، فكان تعاقب الولاة ومنافستهم في تلك الفترة ، وثورات الجند المتكررة واضطراب الشئون العامة ، وفقدان الأمن ، وغلبة الفوضى تزيد مصر على ضعفها ضعفا وتدفعها إلى التطلع إلى مصير أفضل من هذا المصير [٢] حتى كان عهد كافور الذي كان عهدا أسودا على البلاد فقد قاست فيه البلاد البؤس والشقاء بدرجة لم ترها من قبل وكان اشد هذا المحن انخفاض النيل الذي بدأ سنة ٣٥١هـ ، وما تلاه من قحط ووباء، وقد ظل هذا الانخفاض تسع سنين حتى عام ٣٦٠هـ . يحدثنا المقريزي [٣]

بما كان متوقعا وهو أن القحط أعقبه الوباء، ففشا الموت بسببه : حتى عجز الناس عن تكفين الموتى وعن دفنهم . فاضطروا إلقاء جثثهم في النيل ، وكان اثر ذلك أشتد الغلاء وندر وجود القمح وأغار الأشرار على المزارع والحقول ،وعم السلب والنهب ومما زاد هذا البلاء الذي أنصب على البلاد عجز كافور عن صد القرامطة الذين أغاروا على الشام سنة ٣٥٢هـ ونهبوا حجاج مصر في طريقهم إلى مكة سنة ٣٥٥هـ ، وعدم قدرته على الدفاع عن البلاد حين غزاها ملك النوبة ،حتى نهب البلاد الجنوبية فوصل إلى أخميم وعاد إلى بلاده محملا بالأسلاب والغنائم ، يضاف إلى ما تقدم ما كان من عجز كافور أيضاً عن

١- محمد عبد الله عنان :نفسه ص١٩.
٢ - محمد عبد الله عنان: نفسه ص ٢٠.
٣ - المقريزي :الخطط ٣٣٠/١ ،د . حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ص٩٥.

دفع رواتب حرسه و أرزاقهم ، فثاروا عليه [١] أضف إلى ذلك كله ما كانت تعانيه مصر يومئذ من ضروب الانحلال والفساد الاجتماعي الشامل [٢] .

انتهز الخليفة الفاطمي المعز لدين الله تلك الفرصة و أرسل حملته المشهورة لفتح مصر بقيادة جوهر الصقلي سنة ٣٥٨ هـ[٣] .

ومن هذا التاريخ أصبحت هذه البلاد مقراً لحكم الفاطميين التي عدت من الناحية السياسية فاتحة عصر جديد في تاريخ وادي النيل و أصبح لمصر فيها لأول مرة منذ أيام الفراعنة سيادة قومية تامة ممثلة في حكومة عزيزة الجانب شديدة الحيوية تقوم على أساس الدين[٤]

و نافست القاهرة حاضرة الدولة الفاطمية الشيعية الفتية بغداد حاضرة الدولة العباسية السنية المتداعية[٥]

ولقد كان جوهر أول من قام على تنفيذ السياسة الفاطمية التي كانت ترمي إلى اتخاذ مصر جسرا يعبر عليه الفاطميون إلى المشرق لتأسيس خلافة فاطمية شاسعة الأرجاء ولم يقتصر فضل جوهر على تلك الفتوح الواسعة في المغرب ومصر والشام ، بل إنه أسس مدينة القاهرة رابعة حواضر مصر الإسلامية[٦]

لقد كانت الدولة الفاطمية تعتمد منذ نشأتها حتى عهد المعز لدين الله على تأييد القبائل المغربية ذات البأس والعصبية ،وتصطفي زعماءها لمناصب الثقة والقيادة و النفوذ مع استثناءات قليلة في اصطفاء الموالي كما اختار العزيز عدد منهم لمناصب الثقة

١ - حسن إبراهيم حسن: نفسه ص ٩٦.
٢ - محمد عبد الله عنان : السابق ص٢٣.
٣ - د. علي إبراهيم حسن :نفسه ص ٢٥
٤ - د. مصطفى الجويني: ملامح الشخصية المصرية في الدراسات البيانية ٤٨.
٥ - د. علي إبراهيم حسن: السابق ٢٥.
٦ - د. علي إبراهيم حسن: نفسه ٢٥.

و القيادة فولى بنجوتكين التركي القيادة ولاية دمشق ،ووليا الصقلي حكم عكا وبشارة الإخشيدي حكم طبرية : وربحا حكم غزة ، وولي برجوان إمارة القصر، فكان لهم أعظم شأن فيما بعد ، وأذكي هذا الاصطفاء للترك عوامل الحسد والنضال بين الترك والمغاربة [١] كما مال العزيز أيضاً إلى اصطناع اليهود والنصارى وكان الوزير أبو الفرج يعقوب بن كلس أول وزراء الدولة الفاطمية بمصر وأعظمهم شأنا ، وكان يهوديا واسلم في عهد كافور الإخشيدي واتصل بالمعز قبل افتتاح مصر، وعاونه في تدبير الفتح ، وتورَّر ابن كلس للمعز ثم لابنه العزيز بعد زهاء اثني عشرة عاما ، وكان أعظم رجال الدولة الفاطمية وأبعدهم نفوذا وتولى الوزارة في عهد العزيز عيسي بن نسطورس النصراني ، ومنشا اليهودي، وكان طبيب العزيز بالله وطبيب ولده الحاكم من بعده نصراني يدعى أبو الفتح منصور بن مقشر المصري وكانت له منزلة سامية في الدولة [٢] .

وبلغ نفوذ النصارى واليهود ذروته في عصر العزيز، واستولى الوزراء والذميون على معظم أعمال الدولة ، واستأثروا بمعظم السلطات والنفوذ ، وقد كان لهذا التسامح اثر سيئ في المجتمع المصري ، ومن ثم نستطيع أن نقول أن الحالة السياسية التي عاصرها الحوفي في الدولة الفاطمية قد حفلت بالمتناقضات الأمر الذي أدى إلى انكباب علماء الإسلام خاصة أهل السنة ومنهم الحوفي على الدرس والتأليف.

ثانيا : الحالة الدينية في العصر الفاطمي :

جاء الفاطميون مصر يدعون إلى عقيدة تختلف عما كان عليه أكثر المسلمين ، فقد كان السواد الأعظم من مسلمي مصر ينقسمون بين مذهب مالك ومذهب الشافعي ، وقليل منهم من كان على مذهب أبي حنيفة ، ومهما كانت الفروق بين هذه المذاهب فكلها من

١- راجع النجوم الزاهرة ١١٧/٤ وخطط المقريزي ١٧/٣.
٢ - راجع محمد عبد الله عنان: السابق ٢٣.

مذاهب أهل السنة والجماعة التي تخالف عقائد الفرق الشيعية وتباينها ، والفاطميون فرقة من فرق الشيعة عرفت بالإسماعيلية نسبه إلى الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق(١) لقد جعل الفاطميون ولاية الإمام أحد أركان الدين ودعائمه ، فالإمام عندهم مفسر للدين وأسراره ، وإذ جعلوا محمدا صاحب تنزيل القرآن وجعلوا عليا صاحب تأويله أي أن القرآن الكريم بلفظه و معناه الظاهر للناس ، أما أسرار التأويل الباطن فقد أنزلت على محمد ولكنه خص بها على و أبنائه من بعده دون غيرهم من البشر وان على و أبناءه من الأئمة هم الذين يدلون الناس على هذه الأسرار ، وبنو عقيدتهم في التأويل الباطن فكريا على أن المخلوقات قسمان : قسم ظاهر للعيان وقسم باطن خفي ، وجعلوا الظاهر يدل على الباطن ، وسموا الباطن ممثولا والظاهر مثلا . ولذلك يمكن أن يطلق على نظرية التأويل عندهم ، نظرية المثل والممثول (٢)

وبناء على تلك النظرية يجب أن يكون في العالم الأرضي عالم جسماني ظاهر يماثل العالم الروحاني الباطن وكل خصائص العقل الأول السابق جُعِلت للإمام .

ولقد أوَّل الفاطميون الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وفق مذهبهم تأييدا لما ذهبوا إليه من وجوب ولاية الوصي على بن أبي طالب. ففي التأويل الباطن أن "وجه اللّٰه" و " يد اللّٰه "و"جنب اللّٰه " هم الأئمة ، والشمس محمد والقمر على والأئمة والأهلة هم الأئمة(٣) بل ذهب الأمر أكثر من ذلك في عصر الحاكم بأمر اللّٰه ، فقد اتشحت الإمامة الفاطمية بنوع من القدسية الرهيبة وتحولت الدعوة المذهبية إلى نوع من الفلسفة الحرة

١ - يقول الدكتور محمد كامل حسين عن هذه الفرقة :هذه الفرقة التي قالت بإمامة إسماعيل بن جعفر فابنه محمد بن إسماعيل فأئمة " دور الستر " وهم عبد الله بن محمد ، فاحمد بن عبد الله فالحسين بن أحمد فأئمة "دور الظهور، راجع الكتاب " في أدب مصر الفاطمية ص ٢١" .

٢ - د الجويني : ملامح الشخصية ص٥٣ ، د محمد كامل حسين : في أدب مصر الفاطمية ص٧ .

٣- دكتور محمد كامل حسين: في أدب مصر الفاطمية ص٢٩.

أو بعبارة أخرى إلى معترك من الإلحاد المغرق [١]، فقد ظهر في أوائل سنة ٤٠٨هـ بمدينة القاهرة رجل يدعي حمزة بن على بن أحمد الزوزني، ويعرف باللباد ، دعا إلى ألوهية الحاكم بأمر الله ، وانتظم بين الدعاة الذين كانت تغض بهم العاصمة الفاطمية يومئذ[٢] كما ظهر حسن بن حيدر الفرغاني المسمي بالأخرم ودعا مثل ما دعا إليه حمزة من التناسخ والحلول و ألوهية الحاكم ، وقد ذاعت دعوته بسرعة في جماعة من المغامرين والمرتزقة فاستدعاه الحاكم وخلع عليه واركبه فرس مطهما : وسيرة في موكبه ، وأولاه عطفه ورعايته [٣].

كما ظهر محمد بن إسماعيل الدرزي ، ويعرف "بأنوشتكين البخاري "وهو من أصل تركي فيما يرجع أقوي رسل حمزة وأشدهم عزماً وجرأة في الدعوة إلى التناسخ و الحلول ، ويزعم أن روح أدم قد انتقلت إلى على بن أبي طالب ، ثم انتقلت روح على إلى الحاكم صفوة سلالته ، لدرجة أن بعض الجهلاء والمرتزقة وبعض الذميين المنافقين كما إذا لقوا الحاكم في ركبه قالوا : السلام عليك يا أحد ، يا محيي يا مميت ، ولقد كان موقف الحاكم بأمر الله من هذه الحركة الإلحادية المدهشة موقف تأييد ورعاية ، وكان يشد أزرهم ويمدهم بالمال والنصح ويسهر على حمايتهم من الكافرين ، كما كان يشرف على توجيه الدعوة ويشترك في تنظيمها وتغذيتها بطريقة فعلية [٤]

تلك الدعوة التي كانت ترمي إلى غزو الأذهان المؤمنة والعمل على هدم عقيدة أهل السنة ، وهي غاية تبدو واضحة في سياق الدعوة السرية ولا سيما الدعوات السرية و لاسيما الدعوات الأخيرة (٥)

١- محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله ص ١١١.
٢- محمد عبد الله عنان: نفسه ص١١٣ .
٣ - محمد عبد الله عنان: نفسه ص١١٥
٤- محمد عبد الله عنان: نفسه ص١١٦
٥ - راجع عبد القاهر البغدادي حيث يقول :دخلت هذه الدعوة مصر سنة ٣٦٣ واستقرت في القاهرة ، أما أهل القاهرة فهم ثابتون السنة إلي يومنا " راجع : الفرق بين الفرق ص١٢٥.

التي يقول عنها عبد القاهر البغدادي : الذي يصح عندي من دين الباطنية أنهم دهرية زنادقة يقولون بقدم العالم وينكرون الرسل والشرائع ، ويرفضون المعجزات وينكرون الوحي ويزعمون أن الأنبياء قوم أحبوا الزعامة ، فساسوا العامة بالنواميس والحيل طلبا للزعامة بدعوة النبوة والإمامة ويقول : "إن الجنة هي نعيم الدنيا ،وإن العذاب إنما هو اشتغال أصحاب الشرائع بالصلاة والصيام والحج والجهاد وان أهل الشرائع يعبدون إلها لا يعرفونه ، ولا يحصلون عليه إلا على اسم بلا جسم [1] .

تلك هي الصبغة التي غلبت على الفكر الفاطمي ، الصبغة الفلسفية التي تدافع عن مذهبهم ، لكن قامت بجانب ذلك نهضة في ألوان العلوم الإسلامية الأخرى ،ومن مظاهر هذا النهضة ما نجدة من إكثار الفاطميين من بناء المساجد وإنشاء دار العلم التي بناها الحاكم سنة ٣٩٥وجعلها مركزا للدولة الفاطمية[2] لقد كانت سياسة الفاطميين الدينية موجهة إلى غاية واحدة ، هي العمل على حمل الناس على اعتناق مذهبهم وجعل المذهب الفاطمي سائدا في كافة أنحاء الديار المصرية وغيرها من البلاد التي كانت تحت حكمها ولعل ذلك يبدو أكثر وضوحا من علاقة الفاطميين بطوائف الشعب .

أ-علاقة الفاطميين بالنصارى واليهود

كان العزيز يعطف على النصارى واليهود كما كان أبوه قبله ، ولكن العزيز كان أكثر عطفا على النصارى لما كان بينه وبينهم من صلة النسب ، فإنه تزوج من نصرانية وعمل على تعيين أخويها بطريرقين أحدهما في الإسكندرية والأخر في بيت المقدس ، ورفع العزيز عيسي بن نسطورس إلى كرسي الوزارة ، كما عين منشا اليهودي واليا على الشام فاظهر ابن نسطورس ومنشا محاباة جلية لبني ملتهم فعينوهم في مناصب الدولة بعد أن أقصوا المسلمين عنها .

١- عبد القاهر بن طاهر البغدادي :الفرق بين الفرق ص ٧٧

٢- د . الجو يني :السابق ص ٥٣ ،٥٤ ،وراجع المقريزي ٢٩٤/٢

ممـا أدي إلى احتجـاج المسـلمين علـى تلـك المحابـاة الـتي أظهرهـا الخليفـة لغـير المسلمين (١)

فلما تولي الحاكم بدأت سياسته المتقلبة إزاء النصارى واليهود فتارة يقسو عليهم وتارة أخرى يتسامح معهم.

وبالجملة، فقد عامل الفاطميون النصارى واليهود معاملة تنطوي على العطف والرعاية وما كان الاضطهاد الذي به الحكام إزاءهم إلا حلقة من سلسة حلقات الظلم الذي حاق بالمصرين عامة. والحق أن أبناء هاتين الطائفتين قد عوملوا غير مرة معاملة تتجلى فيها المحاباة لهم (٢)

ب-علاقة الفاطميين بأهل السنة :

لم تقتصر سياسة الفاطميين الدينية على اضطهاد النصارى واليهود أو التقرب إليهم، بل تعدتها إلى النواحي الإسلامية ذلك أن الخلافة الفاطمية كانت تحكم مصر شعبا لا يتبعها من الوجهة المذهبية إذ أن الهدف الأول للفاطميين هو بث الدعوة الفاطمية في قوة وجرأة، ولكن في نوع من التناقض، ففي سنة ٣٩٥هـ أمر الحاكم بسب السلف (أبوبكر وعمر وعثمان وعائشة وغيرهم من الصحابة)، وأمر بكتب ذلك على أبواب المساجد والمقابر والدور ولون بالأصباغ والذهب، وأرغم الناس على المجاهرة به ونقشه على سائر الأمكنة (٣)، إذ عدوهم أعداء لعلي و نوقشت فضائل على و أولاده من بعده على السكة و على جدران المساجد (٤)

١ - د.حسن إبراهيم حسن :السابق ص ٢٠٢.
٢ - حسن إبراهيم حسن :نفسه ص ٢١٥، ص٢١٦.
٣ - محمد عبد الله عنان: السابق ٧٦.
٤ - حسن إبراهيم حسن :السابق ٢١٠ و السكة صوابها الصكة يرجع للسان العرب.

ولقد كان سب السلف ظاهرة شيعية عملية ، لم يلبث أن ضج الشعب لهذا الاجتراء المثير، خاصة وأنهم ألزموا جميع الموظفين المصريين أن يعتنقوا المذهب الفاطمي ورغبة في الحصول على مناصب الدولة دفع بفريق من المسلمين للتحول للمذهب الشيعي ،كما دفع بعض الذميين إلى اعتناق الإسلام واتخاذ التشيع مذهبا لهم كما كان لزاما على الموظفين السنيين الذين ظل في أيديهم بعض المناصب الصغيرة أن يسيروا وفق أحكام مذهب الإسماعيلية (١).

ومما زاد الأمر سوءاً اشتداد الفاطميين على أهل السنة ومنعهم من إقامة مراسمهم ففي سنة ٣٨١هـ ضُرب رجل من أهل مصر وطِيف به في المدينة لأنهم وجدا عنده كتاب "الموطأ " لمالك بن أنس (٢).

وفي سنة ٣٩٨هـ صدر مرسوم يقرر بعض الأحكام ويفسرها على أثر ما وقع بين الشيعة وأهل السنة من خلاف وشغب على فهم الأحكام وتطبيقها (٣).

إليك نصه بعد الديباجة :

" أما بعد : فإن أمير المؤمنون يتلو عليكم آية من كتاب الله المبين :" إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ..."(سورة البقرة : من الآية ٢٥٦) مضى أمس بما فيه ، وأتى اليوم بما يقتضيه : معاشر المسلمين : نحن الأئمة وانتم الأمة ، من شهد الشهادتين ، ولا يحل عروة بين اثنين ، تجمعهما هذه الأخوة ، عصم الله بها من عصم ،وحرّم بها ما حرم ، من كان مُحّرم من دم ومال ومنكح ، الصلاح والإصلاح بين الناس أصلح ، والفساد والإفساد من العباد يستقبح ، يطوي ما كان فيما مضي فلا ينتشر ويعرض عما انقضى فلا يذكر، ولا يقبل على ما مر وأدبر من إجراء الأمور على ما كانت من الأيام الخالية أيام آبائنا الأئمة المهتدين سلام الله عليكم

١- نفسه ٢١٠.
٢- المقريزي : خطط ٣٤١/٢.
٣ - محمد عبد الله عنان : السابق ص ٧٦ ، ص٧٧.

أجمعين ، مهديهم بالله وقائمة بأمر الله ، ومنصور بالله ومعزهم لدين الله ، وهو إذ ذاك بالمهدية و المنصورية و أحوال القيروان تجري فيها ظاهرة غير خفية ، ليست بمستورة عنهم و لا مطوية يصوم الصائمون على حسابهم و يفطرون ، و لا يعارض فيهم أهل الرؤية فيما هم عليه صائمون و مفطرون صلاة الخميس للدين بها جاءهم فيها يصلون وصلاة الضحى و صلاة التراويح لا مانع لهم منها و لا هم عنها يدفعون ، يخمس في التكبير على الجنائز المخمسون ، و لا يمنع من التكبير عليها المربعون ، يؤذن بحي على خير العمل المؤذنون ، و لا يؤذى من بها يؤذنون لا يسب أحد من السلف ، و لا يحتسب على الواصف من فيهم بما يوصف، و الخالف فيهم بما خلف، لكل مسلم مجتهد في دينه اجتهاده ، و إلى الله ربه ميعاده عند كتابه و عليه حسابه ليكن عباد الله على مثل هذا عملكم منذ اليوم لا يستعلي مسلم على مسلم بما اعتقده و لا يعترض معترض على صاحبه فيما اعتمده من جميع ما نصه أمير المؤمنين في سجله هذا و بعده قوله تعالى [1] ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [2] .

و المطلع على هذه الوثيقة يرى أنها تؤيد ما ذهب إليه المؤرخون من أن السياسة الفاطمية كانت تذهب إلى سب السلف و المخالفة في بعض أحكام الدين ، كما شفَّت عن روح العصر و بيَّنت طبيعة النزاع الذي كان بين الشيعة و السنة ، و كشفت عن الصراعات الدينية و الخلافات المذهبية التي تقاسمت – بدورها – أجزاء الدولة الإسلامية وأججت في معظمها نيران الفتن و القلاقل و كان ثمة ارتباط وثيق بين تلك الأحداث الدينية و بين التيارات السياسية التي اكتنفت هذا العصر.

١ - راجع ابن خلدون ٦٠/٤ و المقريزي : الخطط ٧١/٤
٢ - سورة المائدة آية ١٠٥ .

والملاحظ على سياسة الحاكم الدينية المتقلبة تجاه فريقين اليهود والنصارى من ناحية وأهل السنة وباقي الجمهور من ناحية أخرى – قد أتاحت لأهل السنة ومنهم الحوفي على أن يشقوا طريقهم دون الخوف من بطش الشيعة أو بطش الحاكم الذي عاد في آخر أيامه إلى سياسة التوفيق بين الفريقين .

الحالة الثقافية في عصره :

انتشرت الثقافة الإسلامية في هذا العصر انتشارا يدعوا إلى الإعجاب ، بفضل الترجمة من اللغات الأجنبية وخاصة اليونانية والفارسية والهندية إلى العربية ، ونُضج ملكات المسلمين في البحث والتأليف وتشجيع الخلفاء والسلاطين والأمراء لرجال العلم والأدب (١) ، فقد قام للعلم دولة وللثقافة والأدب سلاطين ، حيث أقبل الملوك والأمراء والسلاطين والوزراء على أساطين العلم والفلسفة والأدب والشعر وتنافسوا في ضمهم إليهم واجتذابهم إلى بلاطهم وأغدقوا عليهم العطايا تشجيعا لهم على الإنتاج والإبداع معتبرين ذلك مجدا ثانيا لا يقل على المجد السياسي ، ومظهرا راقيا من مظاهر السلطان فازدهرت الحياة العلمية وبثقت فروعها وأورقت أغصانها وأتت أكلها من العديد في مدن المملكة الإسلامية ، كما ساعد قيام كثير من الدول التي استقلت عن الخلافة العباسية على نشاط الحركة الفكرية ، ورواج الثقافة (٢) .

فلم تعد بغداد وحدها مركز الإشعاع العلمي والثقافي بل تجاوبت إصدار الحركة العلمية في كثير من الدول الناشئة ، كما أتاح الموقع للمصريين أن يتلقوا الثقافات المختلفة وبذوقهم ينتخبون ما يتلاءم ومزاجهم وما تسيغه عقولهم وكان لهم من لطف الإشارة وحب التآخي ، والخبرة بفنون الضيافة مما جعلهم يرحبون بكل ثقافة وافدة يتخيرون منها ما يسيغون ثم يعكفون بدورهم ما تجمع لديهم من تراث هو من نتائج البيئات

١ - د. حسن إبراهيم حسن : السابق ص ٤٢١ .
٢ - د. حسن إبراهيم حسن : نفسه ص ٤٢١ .

المجاورة ، ولكنه غرس في أرض مصر فتغذى بلبانها واتخذ طابعها فقد كان على المصريين – وقد وفدت عليهم ثقافات و معارف – أن يتلقوا أولا هذه المعارف يثقفونها و يديرون فكرهم في فهمها ثم ينتخبون منها ما يسيغونه ويهضمونه و يلفظون ما لا يستطيعون تمثله ثم يضيفون بعد إلى ذلك الزاد الثقافي محصول فكرهم و جني عقولهم .

وآلة ذلك كله هو هذا الذوق الذي صقله الموقع الجغرافي و أكسبه المران والخبرة متلقياً المعرفة و هاضما لها و متخيرا منها ثم مضيفا إليها و تاركا عليها طابع سماته و خصائصه (١) .

هذه المعرفة التي جاءت نتيجة كثرة العمران و اتساع أفق الفكر الإسلامي بارتحال المسلمين في مشارق الأرض و مغاربها (٢) ، و نتيجة لنشاط الحركة العلمية الناشئة في بلاط كل من السامانيين و الغزنويين و البوهيين و الحمدانيين في الشرق ، و في بلاط الطولونيين و الإخشيديين و الفاطميين في مصر ، و في بلاط الأمويين في الأندلس (٣)

١ - د. الجويني : السابق ص ٤٠ ، ص ٤١ .
٢ - د حسن إبراهيم حسن: السابق ص ٤٢١.
٣ - للمزيد راجع د. حسن إبراهيم حسن : نفسه ص ٤٢٢ .يقول : كانت هناك في هذا العصر عدة مراكز للثقافة جذب إليها رجال الأدب منها :
١. أصبهان أو الري حيث أقام بوجه عام الصاحب إسماعيل بن عباد الذي تقلد الوزارة لمؤيد الدولة بن ركن الدولة بعد أبي الفتح بن العميد ، و كان بلاط بني بويه هناك يؤمها أساطين العلماء و رجال الأدب .
٢. البلاط السامانى في بخارى حيث كانت مكتبة نوح بن نصر السامانى كما يقول بن خلكان – عديمة المثل – فيها من كل فن من الكتب المشهورة بأيدي الناس و غيرها مما لا يوجد في سواها و لا سمع باسمه فضل عن معرفته " و للمزيد راجع بن خلكان : الوفيات ج أ صـ ١٥٢ ، صـ ١٥٣" .
٣. بلاط شمس المعالي قانوس بن وشمكير في طبرسان القريبة من بحر قزوين و قد وصفه الثعالبي فقال : " خاتم الملوك و غرة الزمان ينبوع العدل و الإحسان و من جمع الله له إلى غرة الملك بسطة العلم ، و إلى فضل الحكمة نفاذ الحكم . للمزيد راجع الثعالبي : " يتيمة الدهر ج ٤ ص ٥٦ " .
٤. بلاط السلطان محمود الغزنوي في غزنة : و قد تمتع بشهرة واسعة فنقل كثير من المؤلفات إلى غزنة ، و كان من أحسن السلاطين ميلا إلى الأدب ، على الرغم من إساءته لرجاله - ويعتبر عهده عهد الفتوحات و الأمجاد السياسية و العلمية و له في سجل التاريخ الإسلامي مكانة ساحقة لما أحرزه من نجاح منقطع النظير في الداخل و الخارج حتى قال عنه الذهبي في تاريخه : انه رأس الملوك في عصره و قد جعل من قصره مركزا حافلا بالنشاط العلمي و الأدبي و مَوئلا لأساطين العلم و الأدب :" تاريخ الخلفاء ص ٤٤٨"
بلاط الحمدانيين في الموصل و حلب فقد كانت حضرة سيف الدولة :" مقصد الوفود و موسم الأدباء و حلبة الشعراء و يقال : أنه لم يجتمع قط بباب أحد الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر و نجوم الدهر " . للمزيد راجع : حسن إبراهيم : السابق ص ٤٢٤ - ابن خلكان : الوفيات ١:١٥٢ و السيوطي تاريخ الخلفاء ص ٤٤٨ و الثعالبي : يتيمة الدهر ٤:٥٦).

كما جاءت نتيجة لظهور كثير من الفرق التي اتخذت الثقافة و العلم وسيلة لتحقيق مآربها السياسية و الدينية وخير مثال لذلك ما نشاهده من الآثار التي خلفها المعتزلة و دعاة الإسماعيلية من العلماء والمتصوفين و غيرهم ، و كان الجدل و النقاش الذي قام بين هذه الفرق من ناحية و بينها وبين السنيين من ناحية أخرى ، أثر بعيد في هذه النهضة العلمية التي يتميز بها العصر الفاطمي على الرغم مما انتاب العالم الإسلامي بوجه عام من تفكك و انحلال و ما أصاب الخلافة العباسية من ضعف و وهن ، ولكن قيام هذه الدول ساعد على ازدياد الثروة وكثرة العمران ثم على ازدهار العلم نتيجة لذلك [١].

١- مراكز الثقافة في مصر في عهد الدولة الفاطمية :

يعد عصر الفاطميين من أزهي عصور مصر الإسلامية من الناحية العلمية و الثقافية فقد بلغت الحياة العلمية في مصر الفاطمية درجة كبيرة من النمو و الازدهار لكثرة العلماء الذين كانوا في مصر أو وفدوا عليها ، وكثرة المؤلفات في كل فن من فنون العلم[٢] حتى استطاعت القاهرة المعزية أن تنتزع زعامة العالم الإسلامي في الحياة العلمية و الثقافية التي يفد إليها العلماء على أن أهم هذه المراكز في مصر كانت:

أ- القصور و المكتبات:

لقد خصص الفاطميون جزءا من قصرهم للدعوة لمذهبهم ، و مكانا يلقي فيه العلماء و الدعاة علوم أهل البيت ، و هي المجالس التي عرفت بمجالس الحكمة التأويلية كما اهتم الفاطميون اهتمام كبيرا بمكتبة القصر حتى عدت هذه المكتبة من مفاخر الفاطميين فقد تميزت عن جميع مكتبات العالم الإسلامي في ذلك الوقت يقول المقريزي نقلا عن

١ - د. حسن إبراهيم : السابق ص٤٢٢ .
٢ - د. محمد كامل حسين : السابق ص٨٩ .

ابن أبي طي بعدما ذكر استيلاء صلاح الدين الأيوبي على القصر: " و من جملة ما باعوه خزانة الكتب ، و كانت من عجائب الدنيا ، و يقال : أنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من التي كانت بالقاهرة في القصر ، و من عجائبها أنها كانت تشتمل على ألف ألف و ستمائة ألف كتاب (١).

لكن هذه الكنوز العلمية من نفائس الكتب التي حافظ عليها الفاطميون في قصرهم أصابهم ما أصاب الفاطميين أنفسهم، و كان ابتداء هذه المحنة التي نُكِبَتْ بها مكتبات القصر إبان الشدة العظمى التي حلت بالبلاد أيام المستنصر باللّٰه الفاطمي ، يقول المسبحي: و كنت بمصر في العشر الأول من محرم سنة إحدى و ستين و أربع مائة فرأيت فيها خمسة و عشرين جملا موقرة كتبا محمولة إلى دار الوزير أبي الفرج محمد بن جعفر المغربي فسألت عنها فعرفت أن الوزير أخذها من خزائن القصر هو و الخطير بن الموفق في الدين بإيجاب وجبت لهما عما يستحقانه، هذا سوى ما ظفر به الجند من الكتب الجليلة المقدار المعدومة المثل في سائر الأمصار صحة و حسن خط و تجليد و غرابة التي أخذ جلودها عبيدهم برسم عمل ما يلبسونه في أرجلهم ، و أحرق ورقها، تأولا منهم أنها خرجت من قصر السلطان أعز اللّٰه أنصاره ، و أن فيها كلام المشارقة الذي يخالف مذهبهم سوى ما تلف و غرق و حمل إلى سائر الأقطار و بقي منها ما لم يحرق و سفت عليه الرياح التراب فسار تلال باقية في نواحي آثار تعرف بتلال الكتب (٢).

و لعل ما أصاب كتب الحوفي عالمنا من ضياع بعضها أو ضياع أجزاء منها هو ما أصاب كتب الفاطميين فهو ابن عصره و بيئته.

١ - د . محمد كامل حسين: نفسه ص ٤٦.، و راجع المقريزي : الخطط ٢ / ٢٥٥.
٢ - د. محمد كامل حسين: نفسه ص ٤٦.، و للمزيد راجع المقريزي : الخطط ٢ /٢٥٤.

قلنا إن القصر في العصر الفاطمي استخدم في نشر الدعوة الفاطمية بمحوله [١] ومكتباته و في المحول كان يجتمع الناس لسماع المحاضرات ، وكان الجمهور يقسم إلى أقسام فكان للأولياء مجلس و للخاصة و شيوخ الدولة وخدم القصر مجلس ، و لعوام الناس مجلس و للطارئين مجلس و للنساء مجلس [٢] .

و لقد كان بجانب القصر الفاطمي ، قصر الوزير بن كلس الذي كان يشجع العلم و العلماء ، و أنه كان يجمع الاجتماعات الكبيرة في بيته في كل يوم خميس ، وكان يحضر تلك الاجتماعات القضاة و الفقهاء ، و أساتذة القراءات و النحاة ، و علماء الحديث وكبار رجال الدولة و الشعراء و غيرهم ، إلى جانب النساخ الذين كلفهم بنسخ شيء من كتب الحديث والفقه والأدب و اللغة و النحو و جعل في قصره جماعة من القراء و الأئمة ، و عين لهم الرواتب و وكل إليهم إقامة الصلاة في المسجد الذي بناه في قصره [٣] .

و من مآثر الفاطميين التي أنشأها الحاكم بأمر الله حمل إليها الكتب من خزائن القصر من سائر العلوم و الآداب ، و أباح ذلك كله لسائر الناس على طبقاتهم ممن يؤثر قراءة الكتب و النظر فيها فجلس فيها القراء و المنجمون وأصحاب النحو و اللغة [٤] .

ب – المساجد :

كانت المساجد تقوم مقام المدارس و الجامعات في أيامنا و من ثم لم تقتصر المساجد على إقامة الشعائر الدينية بل كانت دور علم اتخذه الفاطميون لنشر دعوتهم الدينية و بث عقائدهم المذهبية ، و لعل هذا هو السبب الذي من أجله أكثروا من بناء

١ - المحول: هو المكان الذي خصصه الفاطميون لنشر الدعوة، و هو أشبه شيء بقاعة المحاضرات العامة في عصرنا الحديث " راجع د. محمد كامل حسين: نفسه ص ٤٦. "
٢ - د. محمد كامل حسين : نفسه ص ٥٠ ، و المقريزي : الخطط ٢٢٦/٢ .
٣ - د. حسن إبراهيم : السابق ص ٤٢٦.
٤ - د. محمد كامل حسين : السابق ص ٥٠.

المساجد ، وكان من أهمها الجامع الأزهر الذي بناه جوهر الصقلي سنة إحدى و ستين و ثلاثمائة [١]، الذي أصبح جامعة يتلقى فيها طلاب العلم و رواده من كل صوب و حدب مختلف العلوم والفنون وأول من حول الجامع الأزهر إلى جامعة هو ابن كلس ، فأصبح نبراسا للجامعات الإسلامية [٢] .

٢- علوم اللغة العربية و الفقه التي ازدهرت في هذا العصر :

أخذ المسلمون بحظ وافر من العلوم على اختلافها ، و ميز العلماء بين العلوم التي تتصل بالقرآن الكريم ، و العلوم التي أخذها العرب عن غيرهم من الأمم ، و أطلقوا على الأولى العلوم النقلية أو الشرعية ، و على الثانية العلوم العقلية أو الحكمية ، و يطلق عليها أحيانا علوم العجم ، أو علوم الأوائل أو العلوم القديمة ، أو العلوم الدخيلة . و تشمل العلوم النقلية : علم التفسير ، علم القراءات و علم الحديث ، و الفقه ، و علم الكلام ، والنحو و اللغة و البيان و الأدب . و تشمل العلوم العقلية: الفلسفة، و الهندسة، و علم النجوم و الموسيقى و الطب، و السحر، و الكيمياء، و الرياضيات والتاريخ، و الجغرافية [٣] .

ازدهرت الحركة العلمية في العلوم النقلية و العلوم العقلية معاً، ولكن الذي يهمنا هو العلوم النقلية لمنهجنا في البحث و التي سوف نعالجها بالتفصيل في أثناء الكشف عن منهج الحوفي في التفسير.

١. علم التفسير و القراءات و علوم القرآن :

من المعروف أن العلوم العربية و الإسلامية إنما نشأت بسبب القرآن الكريم و ما يدور حول دراسة القرآن من ضبط حروفه وتفسير غريبه ومعرفة أسرار إعجازه ، و تفهم

١ - د. محمد كامل حسين : نفسه ص ٥١.
٢- د. حسن إبراهيم : السابق ص ٤٢٨.
٣ - د. حسن إبراهيم : نفسه ص ٤٢٨ .

معانيه [1]، فعلم النحو و علوم اللغة لم تنشأ إلا بسبب القرآن، فلا غرو أن رأينا هذه العلوم التي كانت تجور حول دراسة القرآن موضع اهتمام المسلمين في جميع الأقطار الإسلامية ومنها مصر، فقد عرفت مصر هذه العلوم منذ دخلها المسلمون و أخذت في الازدهار حتى جاء الفاطميون فأوْلوا هذه الدراسات عنايتهم و رعايتهم [2]، و اتخذوا التفسير وسيلة لنشر مبادئهم و لجأوا إلى التأويل غير المشروع، أي الذي لا يوافق العقائد الإسلامية فنراهم يفسرون قوله تعالى : ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾ [3] بأن قوله تعالى ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ﴾(سورة نوح : من الآية ١٠) أي أسألوه أن يطلعكم على أسرار المذهب الباطني ، و من قوله ﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ (سورة نوح : من الآية ١١) بأن السماء هي الإمام و الماء المدرار العلم ينصب من الإمام إليهم ، و معنى ﴿ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ ﴾(سورة البقرة : من الآية ١٢) أن الأموال هي العلم و البنين هم المستجيبون ، و معنى﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾ (سورة نوح : من الآية ١٢) أن الجنات هي الدعوة السرية أو الباطنية ، والأنهار هي العلم الباطني، و كذلك فسروا قوله تعالى

﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (سورة الحشر : الآية ١٦)

إن الشيطان هو عمر بن الخطاب والإنسان هو أبو بكر الصديق، و معنى أكفر لا تؤمن بإمامة على بن أبي طالب وتفسيرهم لقوله تعالىُ ﴿ ٱلشَّمْس وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ (سورة الرحمن : الآية ٥): أن الشمس والقمر هما الحسن والحسين، و أن إبليس و آدم المشهوران

١ - د. محمد حسن كامل: السابق ص ١٢١.
٢- د. محمد حسن كامل : نفسه ص ١٢١ .
٣ - سورة نوح آية ١٠ ، ١١ ، ١٢ .

في القرآن هما أبو بكر و علي ، إذ أمر أبو بكر بالسجود لعلي و الطاعة له فأبى و استكبر[١].

غير أننا نرى الفاطميين الذين كانوا لا يتفقون في تفسير القرآن مع باقي المسلمين مدَّعين أن للقرآن الكريم تأويلا باطنيا يخالف ما يقول به المفسرون قد أفسحوا صدورهم لتفسير هؤلاء العلماء الذين كانوا بمصر، و سمحوا لهم بالتحلق في المساجد و إلقاء دروس التفسير على طلاب العلم[٢]

و لعل الحوفي من هؤلاء العلماء الذين أفسح الفاطميون لهم صدورهم فأنشأ تفسيره ردا على تأويلاتهم و لذلك جاء تفسيره جامعا لكل ركن من أركان التفسير على ما ستوضحه الدراسة .

و لقد ظل القرآن منبع كثير من العلوم التي اشتغل بها المسلمون في هذا العصر فاستعان به علماء النحو على استنباط قواعد اللغة العربية كما اعتمد الفقهاء في أحكامهم الفقهية على القرآن و ألفوا كتبا كثيرة أسموها " أحكام القرآن " ، واستعانت الفرق الإسلامية بكتاب الله و اتخذوه أساسا للتدليل على صحة ما ذهبوا إليه[٣] .

٢. **اللغة و النحو** :

لم تكن هذه الدراسات العربية جديدة على النحو، فقد نبغ في اللغة والنحو قبيل الفتح الفاطمي أبو جعفر أحمد بن محمد النحاس النحوي المصري[٤]، رحل إلى العراق و أخذ النحو عن أبي الحسن على بن سليمان الأخفش و أبي إسحاق الزجاج و غيرهما و نبغ في العصر الفاطمي أبو عبد الله محمد بن جعفر التميمي القيرواني و كان لغوياً نحوياً[٥]

١ - د. حسن إبراهيم: السابق ص ٤٢٥.
٢ - د. محمد حسن كامل: السابق ص ١٢٣.
٣ - د. حسن إبراهيم: السابق ص ٤٢٧.
٤ - للمزيد في ترجمته : راجع شيوخ الحوفي في الفصل القادم .
٥ - د. حسن إبراهيم: السابق ص ٤٣٧.

كما اشتهر أبو طاهر النحوي و كان يتولى ديوان الشام في عهد الخليفة الحاكم [١] و كان أبو الفضل جعفر لغويا نحويا لقبه الحاكم بعالم العلماء، و جعله يجلس في دار العلم يقوم بتدريس اللغة و النحو، و من علماء هذا العصر عالمنا أبو الحسن على بن إبراهيم الحوفي النحوي المصري من أهل الحوف الذي نحن بصدد دراسة منهجه في التفسير، أخذ العلم عن أبي بكر الإدفوي [٢]، كما أخذ العلم عن جماعة من علماء المغرب، و على ما سوف تكشفه الدراسة أن الحوفي لم ينفصل عن عصره بل عاش عصره العلمي مستغرقا في خضمه، متأثراً به و مؤثراً فيه.

١ - د. حسن إبراهيم: نفسه ص ٤٣٧ .
٢ - راجع ترجمته المفصلة في الفصل القادم .

obeikandl.com